وقفـــات و مـــواقف

أ.د. مختاري زين الدين

جامعة تلمسان

كلمة الاستهلال:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين،سيّدنا محمّد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين ،وصحـــابته الغرّ الميامين،والتّابعين،ومن سار على هديهم ومنهجهم بإحسانٍ إلى يـــــوم الدّين.

وبَعْدُ ،فلكُم كُنْتُ أتمنّى أن تُتاح لي سانحةٌ، أكتُبُ فيها كلماتٍ، ،تليق بمقام أستاذنا الفاضل-زادهُ الله من فضله-،وأخينا العزيز-أعزّه الله- ،وصديقنا الكريم- أكرمه الله - الأستاذ الدّكتور المَيَّز الشيخ "رضوان محمد حسين النّجار" ، للذّكرى، و المحبّة ، و التّقدير.

و هذ وَفاءً بحقّه الشّخصي والذاتي، بحكم العلاقة المتميّزة التي تربطُني به، والتي استمرّت على مدى أكثر من عقدين من الزّمن، و هذا في وقفات خاصّة أشارت إليها سيرته الذّاتية المدوّنة على صفحات كُتُبه ، و بعض المجلاّت ،ودراسات طلبته في الماجستير والدّكتوراه،واكتفت تلك السّـــيرة بظاهر العبارة لدواعٍ إداريةٍ وأكاديميةٍ،ولم تشأ أن تغوص إل عُمْق سرّ الإشارة ،لتبقى بعـــــض الحجارات قابـــعةً في محجرها الأمين،لا يفوزها إلاّ المقرّبون من الأصفياء. وهذا هو الشـــقّ الأوّل

من العنوان"وقـــــفات معهودة"وَالّذي يُقدّم الصورة الأخرى الذي لا نعرفها عن الأستاذ رضوان.

و وفاءً بحقّه العلـــمي و البيداغوجي، في مواقـــف مشهودة نقـــدية أدبية وأكاديمية، أملتـــها منـــاسبات علمية، وظروف تعليمية امتدّت على مدى ثلاثة عُقُود من الزّمن، وهذا هو الشّقّ الثّاني والواسع من العنوان الذي ينطوي على مواقف موضوعية اصطبغت بنزعة ذاتية، وعليه يصبح الموضوع بشـــــقّيه المتداخلين: وقفات ومواقف مع **أ.د.رضوان النّجار**.

و في كلّ الأحوال، فهاهي تِهِ الفُرصة: أُتيحت ، بذينك الشّقين، بالتّعبير الرّضواني الفصيح الّذي صدّره إلى طلبته و مريديه، في هذا **اليوم الدّراسي التكريمي المنيف،لأستاذٍ مُميّزٍ، جاء في تـــاريخٍ مُميّزٍ، بمصادفةٍ جميلةٍ، في**

رقمين متساويين،في اليـــوم العاشر، من الشهر العاشـــر، أي 2012/10/10، وستكون العلامة اليوم–إن شاء الله– 10 من 10 .

و أحسب أنّ هذا اليوم الدّراسي التكريمي مُبادرة طيّبة ،تُشكرُ عليها كلّية الآداب واللّغات عميداً، ورئيس قسم، ورؤساء مخابر: أ.د/عبد الجليل مرتاض /أ.د/محمد عبّاس-/أ.د/محمد طول-أ.د/سيدي محمد غيتري.

وأتمنّى أن يترسّخ هذا العمل الجليل في كلّيتنا وقسمنا بجامعة تلمسان تقليداً حضارياً، يُتوّجُ به كلّ أستاذٍ في نهاية مسيرته المهنية ،وتبقى المسيرة العلمية مُستمرّةً بحسب الاستطاعة والنّشاط، وانّ كلّ أستاذٍ -إن طال العمر إن شاء الله–لآيلُ في نهاية المطاف إلى هـــذه الخاتمـــة التي نتمنّى أن تكون سعيدةً، وأن يكلأها الله بالعافية والمعافاة.

وقفات معهودة :

يَعْلم المؤمن التّقي،والإنسان العاقل،أنّ ما من مَسْعَى إلاّ بمشيئة الله سبحانه وتعالى، و ما من صنيعٍ أو عملٍ إلاّ بقضاء الله وقدره،مصْداقاً لقوله تعالى،وهو أصدق القائلين: "وَ مَنْ أَصْـــدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ". النّساء /الآية: 122 "و منْ أصْدَق مِنَ اللهِ حَدِيثاً " النساء/: الآية 87 .

"وَمَا تَشَاؤُونَ إلاّ أنْ يَشَاءَ اللهُ ربُّ العَالَمِينَ". النكوير، الآية : 29

"سُبـــْحَانَهُ إذا قَضَى أمْراً فإنّما يقولُ لهُ كُنْ فَيَكُونُ". مريم , الآية: 35 .

وها أنتَ- **يا أُستاذي رضوان**-ترى هنا هذا السّعي العظيم الذي سعيته، وسلخت فيه مـــن عمرك ثلاثين سنة، حتّى زاغ بصرك، ولانت قناتك، وشابت عِذارك، و اثّاقلت خُطاك، ولكنّك عندما تقف في جلسات المناقشات، و في القاعات والمدرّجات، يُسمـــع صوتك من بعيدٍ مُرعداً مُدوّياً في فصاحةٍ عزّ نظيرها في هذا الزّمن الرديء.

ولقد جاء هذا اليوم في الوقت المناسب —وما كنت تدري أن تصل إليه، فقد كنتَ قبل أربع سنوات خَـــلَت تُلوّح بالذّهاب ،فيُمســـكُ بك القـــدر المقدور مُصطبراً ، إلى أن حلّت ساعـــة الفرج، وحُفظَ ماءُ الوجه.

غير أنّني سأفتقدك شخصياً، وقد تعوّدت على مُلاقاتك في تلمسان، وعلى صوتك يومياً عبر الهاتف، فنضرب موعداً في مكتبك, ينتهي إلى قهوتك المعهودة التي ستبـــقى تحمل اسمـــــك بعد غيابك، نعم.. سأفتقدك لما تعلّمته منك من صبر وجلدٍ، و حكمة ورزانة، و رجاحة عقل، وعلْم، وقدرةٍ عجيبةٍ على كظم الغيظ.

و لقد كان يضيقُ صدرك مرّاتٍ، في مواقف عدّة، بما كُنتَ ترى و تسمع، و يحدُثُ لك، فتطلقُ من أعماقك زفرةً حارّةً، في آهةٍ حزينةٍ، قائلا بتعبيرك "آخ" فنغضب سوياً، ثمّ تهدأ فنقول بهدوء « ما يكون إلاّ الخير». و تتبعُها بأُخرى في سكينة و يقينٍ راسخ "منصورين بإذن الله"، "وقد وُعِدْتَ "بأنّك

سترى كلّ شيء, وقد رأيت، وها أنت ترى اليوم شيئاً من هذا الشيء فيضيق الضّيق حينها، و ينصرف مذموماً مهزوماً.

ثمّ تعُودُ إلى البيت مساءً، مُتعباً، في تلك العشيّات المعصفرات، إلى آخر طابق في العمارة من تسع وتسعين عتبةً، فتستقبلك وحشة البيت،في غياب العائلة، كأنّك في زنزانة انفرادية، ثمّ تلقي بجسدك المنهك على أوّل مقعد، في غرفة الاستقبال قبالة المطبخ، وقد تعدّدت أوانيه وصحونه، تنتظر الغسيل، لتجد نفسك أمام غول الغربة و الاغتراب، و لولا مكالمات هاتفية بين الفينة والأخرى، تصنع ضجيجاً عابراً في البيت، مع الأهل، و مع بعض أحبّائك، وأنا منهم، و قراءة القرآن والصلاة، وتكوير حبّات المسبحة بالذّكر و التّسبيح، لكان افترسك غول الغربة، ولهشك الاغتراب، ولكنّك استطعت بإيمانك، وصبرك، وثباتك أن تجعل الغربة في اغترابٍ ، والاغتراب في غُربةٍ.

و إذا كان لابدّ من الاستئناس **بالسّيرة الذّاتية للأستاذ رضوان.** للاستزادة من بعض الوقفات والمواقف، فإنّ قراءةً متأنّيةً لها ستوقفُنا على محطّات من حياة الرّجل، كانت كلّها رحلات صبر و معاناة ، في طلب العلم، وفي حقيبة السّفر سِفْرُ وطنٍ سليبٍ.

كانت بداية الرّحلة من الفالوجة التي رأى بها النّور عام 1943، في غزّة الفرقان، و هاشم، والشّافعي، في فلسطين بلاد الشّام. و منها إلى مدينة خليل الرّحمن بسبب المُمارسات الهمجية للمحتلّ الصّهيوني الغاشم.

ولا يُمكن **للأستاذ رضـــوان** أن ينسى ملعب الصّبا وذكريات الطّفولة في مخيّم الفـــوار- حيث آلاف النّازحين من بني بلدته، والدراسة الابتدائية والمتوسّطة فيها، ثمّ الثّانوية في مدينة الخليل، بشهادة البكالوريا عام 1963 م، ثمّ إلى بيروت مع الدّراسة الجامعية، في قسم اللّغة العربية وآدابها بالجامعة العربية، لتتوّج بشهادة اللّيسانس سنة 1970 .

ثمّ تأتي بعد ذلك الدّراسات العليا في القاهرة بمغامراتها العلمية والشابية، في كلّية اللّغة العربية بجامعة الأزهر الشريف، حيث الاحتكاك بعلماء اللّغة والأدب العربي، و الشيوخ والفقهاء، ومنهـــم الأستاذ الفاضل الدّكتور محمد السّعدي فرهود الذي ترك في رضوان بصمات علمية ومنهجية جلية، تبدّت في أحد البحوث الأولى حول: "الطّبيعة في ديوان العقّاد" عام 1976.

و حياة رضوان التّجار كلّها وقفات مُثيرة ، و تبدو أحياناً شاذّةً و غريبة ، في مغامرات تلوح في زمننا هذا بجامعتنا، فقد ناقش رسالة الماجستير الموسومة "الصّحابي الشّـــاعر حُميد بن ثور الهلالي، حياتُه و شعره، في يوم قائظ من أيام رمضان، في 24 آب 1978، و الغرابة هنا ليس في هذا الشّهر الفضيل ولا في هذا الصّحـــابي الجليل، ولكن المناقشـــة تمّت ليلاً بعد صلاة التّراويح، فهل يحـــــدث هذا عندنا؟

و هذا ما حدث أيضاً في مناقشة العالمية أو الدكتوراه، عام 1981، حول: «الشعر في قبيلة عامر بن صعصعة حتّى القرن الأوّل الهجري» مع دراسة

وافية للقبيلة، و شعرائها، و جمع شعرهم، وتحقيقه في ديوان كاملٍ، بعنوان: "الشعر في قبيلة عامر بن صعصعة".

والوقفة المُثيرة هنا للغرابة أن المناقشة والمداولة دامتا من السّاعة الخامســـة عصراً حتّى منتصف اللّيل،فهل يحدث هذا عندنا؟.

مواقف مشهـــودة :

و هاهنا ندرك تماماً **صرامة الأستاذ رضوان العلمية** في إشرافه على طلبته ومناقشاته العلمية، وحرصه على سلامة الحرف العربي من الزّلل والتّشويه، في النّطق والكتـــابة، ولَوْ مَلَكَ الأمر، وَحُكِّمَ لتصفية الشّأن العلمي في هذه الكلّية ما ترك على ظهرها من دابة-ولكن ظُروفاً قاهرةً فرضت عليـــه تقديم تنازلات غير معهودة، كما أعرفه لأسباب لا يتّسع لنا صدر هذه الوقفات والمواقف.

ثمّ تنهال بعد ذلك على **الأستاذ رضوان** العروض المغرية لخوض غمار التّعليم الجامعي من كلّ صـــوب وحـــدبٍ, ليـــكون قدره أخيراً في بلد الشّهداء الجزائر، مُفضّـــلاً إيّاه على ســـائر البلدان في موقفٍ مشهودٍ، لتعزيز الحـــرف العربي، وترقية الذّوق الأدبي، ولكنّه سار قصد الجزائر لا كالمشتهي بلداً، بقول الجواهري :

وَسِرْت قَصْدَكِ لاَ كَالمُشْتَهي بلداً   و لكن كَمَنْ يَتَشهّى وجْهَ مَنْ عَشِقَا

و للعشق والشّوق في حنايا رضوان قصّة أُخرى فريدة ووحيدة، ولا يملك سواهـــا، في ارتباطٍ صوفيٍّ أبديٍّ منقطع النّظير، يتوحّد فيه الذّاتي بالموضوعي، فحين تستبدّ الغربة برضوان ويأخذ منـــه الشّوق مأخذه، ثمّ ينهي عملاً من أعماله، لا يفتأ يهرع في مقدّماته وإهداءاته إلى أعزّ ما يملك، فلا ينسى أحداً من الأحباب، في عقدٍ من الجوهر مُتّصل الحلقات، غير أنّ بريق واسطة العقد يأخذ بلُبّه، فيخرُجُ من سُوَيْداء القلب حبراً يكتب بمخطّ اليد وشماً أبدياً رائعاً, يغار منه بياض الورقة.

ففي اللّحظة التي **يختم فيها رضوان ملازم كتابه «الحسّ الجمالي في النّقد الاستحساني»**، ويقف في ذيل المقدّمة على تاريخ: التّاسع عشر من تموز (جويلية) يتأوّب طيف جمالي آخر ليعطي بمنظومة الدهر عل الحس الجمالي في النقد الأدبي الاستحساني.

"حتّى انتظمت الحياة في منظومة ومع منظومة أبد الدّهر بمشيئة الله تعالى..

و إنّها لي بمشيئة الله تعالى-وإنّها لي-(أُقسم بربّ المشارق والمغارب) وَفْق قول الشّاعر، لا فُضّ فوه على الطويل، أطال (الله الصمد) أعمارنا جميعاً.

لقد كان فيها للأمانة موضعٌ وللقلب مُرْتادٌ وللعينِ مَنظَرُ

قال الشّاعر: لقد كان

وأقول: "ومازال، و لله الحمد دَوَاما "

تلك هي كتابات الأستاذ رضوان حين تفيض من مَعْدنٍ أصيلٍ فيه، هو معدن "الوفاء"، إلى جانب الكرم وعزّة النّفس. و أغلب الظّنّ أنّ أقرب مفتاح لشخصيته في وقفاتها المعهودة ومواقفهـــا المشهودة ، هو هذا الوفاء الذي يتفرّع عنده إلى ما يلي:

- **الوفاء للإسلام وللعروبة.**
- **الوفاء للأرض الفلسطينية، وبيت المقدس.**
- **الوفاء للوالدين، والزوجة الكريمة، والأولاد.**
- **الوفاء للأسرة الكبيرة.**
- **الوفاء لجميع أساتذته و شيوخه، و أصدقائه، و مريديه من طلاّب العلم، وكلّ من له حقّ عليه من الأحياء والأموات.**
- **الوفاء للّغة العربية، لغة القرآن، وجميع علومها وآدابها.**
- **الوفاء للموروث العربي الحضاري والأدبي، بجميع مكوّناته.**

إنّ هذا "**الوفاء**" هو الذي دفع الأستاذ رضوان إلى التزام موقف حـــازمٍ من بعض الشطحات الشعرية الحداثية، بدعوى الحداثة، و المعاصرة، و مواكبة الجديد في عالم الدّرجات الإبداعية، وله في ذلك مسوّغات موضوعية مستمدّة من معايير عمود الشعر، ومن الشعر العربي القديم، و من التجربة الحداثية

الشعرية نفسها، والدّليل على ذلك بحثاه المنشوران في العدد الثّاني من مجلّة الموريات, والعدد الثامن عشر من مجلة الأداب و اللغات و الموسوم: "قراءة في كتاب جناية الشعر الحرّ (عرض ونقد وموازنة).

ففي هذا البحث ،يتجلّى موقفه الحازم مما يُسمّى"الشّعر الحرّ"،وهو موقف يتّفق فيه قناعةً، وفكراً وتخريجاً مع موقف الشّاعر"أحمد فرح عقيلان"، في كتابه "الشّعر الحرّ" الذي أحْصى فيه جنايات كثيرة «منها أربع عشرة جناية، و كلّها حيال الكتاب السّماوي، القرآن الكريم،ولسانه العربي المبين، وحيال اللّغة العربية و شعرها وآدابها، بل وحيال أبنائها وأجيالها المتلاحقة»، الموريات: العدد الثّاني، ص13 ،14 و مجلة الأداب و اللغات, ص7 - 48 .

ولا تتّسع ،بطبيعة الحال، أوراق هذه الوقفات و المواقف، لتقف بالتّفصيل على هذه الجنايات كلّها. ونُحيلُ القارىء على العدد الثّاني من مجلّة الموريات التي تصدرها الملحقة الجامعية بمغنية، للوقوف عليها كاملةً من الصّفحة الثّالثة عشرة إلى الصّفحة الثّالثة والأربعين و كذا مجلة الأداب و اللغات التي تصدرها كلية الأداب و اللغات بجامعة تلمسان.

و إذا كان لابدّ من كلمةٍ إزاءها، فقد جاءت هذه الجنايات مشفوعةً بشواهد نقدية وشعرية قديمة وحديثة ومعاصرة، في غاية الإمتاع والإقناع، يعضدها تحليل علمي موضوعي، و حِجاج قوي دامغ، في موازنة لطيفة،ومع

ذلك فهي لم تغلـــق باب الجدل والنّقاش،ولم تضـــع حدّاً لتدفّقِ الشّعر الحرّ، لأنّ التّاريخ هو وحده القمين بإنصاف الأشكال الإبداعية.

و لم يكتفِ **الأستاذ رضوان النّجار** ببيان موقفه من الشّعر عرضاً ونقداً وموازنةً،بل ذيّله بكلمةٍ ختامية شبيهة بالبيانات الختامية لدى السّاسة،أودع فيها دون تحديد «الخصائص الخالدة لأدبنا الحيّ الذي ارتضته أمّتنا عبر حياتها الطّويلة،ومن هذه الخصائص :

1- أن يخلو الأدب من دعوات الاخلال والفساد والهدم ،وأن يكون مُجنّداً لخـــدمة المثل العُلْيا ومكارم الأخلاق.

2-أن يخدم اللّغة العربية بصيانة فقهها، وقواعدها وفصاحتها، وتراثها القرآني.

3-أن تتوفّر فيه العناصر الفنّية اللاّزمة لكلّ أدبٍ خالدٍ، وهي:(روعة المعنى، وجمال المبنى، ونصوع الخيال، وصدق العاطفة).

4-أن يكون الشّعر موزوناً على كلّ أحواله، وألاّ يُحرم من شكلٍ من أشكال القافية، ولو على طريقة الموشّحات والمقطوعات.

5-أن يكون خالياً من الغموض والتّعقيد، مفهوماً لدى المستويات المختلفة من مُثقّفي الأمّة، لكي تعمّ الفائدة وتستمتع به شتّى الأذواق». يُنظر ،الموريات، العدد الثّاني، ص42 ، 43.

و على الرّغم من هذا الموقف الصّارم والمتشدّد من التّجربة الشّعريةالحداثية،وخصوصاً مماّ يسمّى بالشّعر الحرّ الذي انفلت من كلّ

عقال،فإنّ ذلك لم يكن يمنعه من الاستئناس، بين الفينة والأخرى، ببعض المصطلحات النّقدية الحداثية، وتوظيفها في دراساته، ومثال ذلك بحثه الموسوم: «تأمّلات إيقاعية سميائية في البردة اللاّمية لكعب بن زهير»، كما سمح لطلبته ومريديه في الدّراسات العليا باستخـــدام هذه المصطلحات واستنباطها من النّصوص النّقدية والأدبية القديمة، والدّليل على ذلك إشرافه على أطروحة دكتوراه، ستُناقش قريباً، بعنوان: «الظّواهر السيميائية في النّص الأدبي العبّاسي ، بين الأصالة والحداثة» .

و لا يسعني في نهاية هذه الكلمة التي أردتُها عُربون محبّة ووفاءٍ وإخلاصٍ -لصـــــديقي وأخي وأستاذي الدكتور رضوان النّجار- إلاّ أن أَجْأَر إلى الله العليّ القدير، أن يبارك له في يومه الدّراسي التّكريميّ هذا،وفي صحّته وعمره، و في أسرته وأقربائه، و كلّ أحبّائه و أصفيائه الذين وقفوا معه في هذا اليوم المشهود.

الهـــــوامش :

- جميع المقبوسات والشّواهد موثّقة في موضعها من المتن.